مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 05 السنة: 2019
ص: 114 -127 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تجليات الحكمة في الخطاب الزّهدي" شعر أسامة بن منقذ نموذجًا "

The Manifestations of Wisdom in the Discourse of Asceticism, Case Study: "ThePoetry of Oussama Ben Mounketh "

أشواق تريعة.*

Achwak Tria

كلية: الآداب واللُّغات).جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر).

University of Biskra/ Algeria

تاريخ الإرسال:2019/02/08	تاريخ القبول: 2019/08/30	تاريخ النشر: 2019/12/01

ملخص البحث

يُعدُ شعر الحكمة من أشهر الأغراض الشّعرية العربية القديمة شيوعًا وانتشارًا بين الشعراء، وأكثرها خلودًا وبقاءً على مرِ الأجيال، فهي اللِّسان الذي يُعبر عمّا يختلج النّفُوس والأذهان، وقد أولى الشّاعر أسامة بن منقذ أهمية بالغة لشعر الحكمة في زهدياته، هذه الأهمية التي تُوحِي بسيرته الحسنة وتمسُكهِ بالدّين الإسلامي الحنيف، الذي تجلّى في هذه الدراسة التي قمنا بها، والتي توشحت بمعاني الإيمان والتّقوى، والتذكير بالموت، والتطلع إلى الآخرة والبعث والحساب والأمر بالخير والنّهي عن المنكر.

الكلمات المفتاحية: حكمة؛ زهد؛ أسامة بن منقذ؛ شعر.

***Abstract*:**

The poetry of wisdomis one of the mostfamousArabicpoeticpurposes and iswidelyusedamongpoets, and the mostimmortal and lasting through out generations. It is the tonguethat expresses the soul and the mind. The poet "Oussama Ben Mounketh " had givena great interest to the the poetry of wisdom in his asceticism, that interest was just a reflection to his modest and good behavior and his adherence to his Islamic religion .Thus, we can feeland touch this in this study that we have done. His wisdom was characterized by his faith, piety, righteousness, reminding us about death, looking forward for the hereafter, resurrection, judgment day, and the promotion of virtue and prevention of vice.

Keywords: Wisdom; Asceticism; Oussama Ben Mounketh; Poetry.

* أشواق تريعة. **achwaktria2@gmail.com**

تـمهيـــد:

زخر الشعر العربي بالحكمة المستمدة من واقعِ الحياة العربية بالإضافة لما استمدهُ الشعراء العرب من الكتب المترجمة الغنية بالأمثال وبالآداب فاقتبسُوا منها ونظمُوا على منوالها، فأخذُوا من الحكمة اليونانية والفارسية والهندية...إلخ، كما أن شعر الحكمة يعتبر من أشهر الأغراض الشّعرية العربية القديمة شيوعًا وانتشارًا بين النّاس، وأكثرها خلودًا وبقاءً على مرِّ الأجيال، فهي اللّسان المعبر عمّا يختلج القلوب والأذهان، فهي تُجلِي النفوس من الهموم والمشاق والآلام، وتكسيها بحُلةِ التفاؤل والأمل، وكلّما كان الشاعر فحلاً أبدع في إعطاء شعر الحكمة الحظ الأوفر من الجماليات والأثر في ذهن القارئ ، ولما كان شعر الزُّهد يتوجّه إلى اللهِ سبحانه وتعالى خوفًا من عقابه وطمعًا في رحمتِهِ، وحول الدنيا ومتاعها، والآخرة وما يرتبطُ بها من موتٍ وفناءٍ وبعثٍ وحسابٍ، وما دام الشّاعر كائنًا اجتماعيًا فهو بالضرورة يعيش الحياة بكل تناقُضاتها ويتوجع بآلامها ويفْجع بمصائبها.

وبما أنّ الشاعر المعني بالدراسة في هذا المقال شاعرٌ فحلٌ من فحول العصر العباسي لا غرو إن كانت الحكمة قد تخللت صفحات ديوانه الشّعري، ومن هنا يمكن أن نطرح جملة من التساؤلات ليكون أولها:

-كيف تجلّت الحكمة في شعر أسامة بن منقذ؟

- وما هي مواطن الجمال التي رسمتها الحكمة في زهدياته؟

هذه الأسئلة وأخرى ستكون الإجابة عنها في هذا المقال بحول الله.

أولاً:تحـديـــــد المصـطـــلحـــات:

1- معنـــى الحـكمـــة:

أ-الحكمـــة لغـــة:

ذكر في المعجم الوسيط أنّ **الحكمة** هي " معرفة الأشياء بأفضل العلوم "[1]، وجاء في القرآن الكريم في **سورة لقمان** قوله تعالى:﴿ **ولقـدْ آتيّنَـــا لقمـــانَ الحِكْمَـــةَ** ﴾[2]، أو هي الكلام

الذي يقلُ لفظهُ ويجلُ معناه، وجمعها حكمٌ[3]، والحكيمُ هو " العالمُ وصاحبُ الحكمة، والحكيمُ أيضًا المتقن للأمور "[4].

وعرّفها " **ابن منظور** " في اللّسان: " حكمةُ أيّ منعهُ مما يريد، ومنه حكَّمتُ الدابة؛ لأنّها تُذللُها لراكبها وتمنعها من الجماح، وقيل للحاكم بين الناس حاكمٌ؛ لأنّه يمنع الظالم من الظلم، ومنه اشتقت الحكمة؛ لأنّها تمنع صاحبها من الآثام والخطايا والرّذائل وهي أيضًا عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم "[5].

ب- الحكمـــة اصطـــلاحًـــا:

أمّا في الاصطلاح فهي: " قولٌ بليغٌ موجزٌ صائبٌ يصدرُ عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكمًا مسلمًا تقبله العقول وتنقاد له النّفوس والمشاعر"[6].

وقد عرّفها النّقاد بأنّها: " الكلام الموجز البليغ الذي يحوي عِظةً نافعةً وعِلمًا مفيدًا "[7].

ج- الحكمة في القرآن الكريم والسنة:

❖ **الحكمة في القرآن:**

وردت كلمة الحكمة في **القرآن الكريم** على صور متعددة منها **قوله تعالى:﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ من يشاءُ ومنْ يؤتَ الحِكمةَ فقَدْ أوتِيَ خيّرًا كثيرًا ومَا يذكّرُ إلاّ أُولُوا الألبابِ﴾**[8].

قال" **ابن كثير رحمه الله** "في تفسيره لهذه الآية:" قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلالهِ وحرامهِ، وأمثاله، وقال **أبو العالية**: " الحكمة خشية الله، فإنّ خشية الله رأسُ كلِ حكمة، وقال أبو مالك: " الحكمة السُّنة "، وقال **زيد بن أسلم**: " الحكمة العقل "، وقال **مالك**: " وإنّه ليقعُ في قلبي أن الحكمة هي الفقهُ في دينِ الله، وأمرٌ يدخلُهُ اللهُ في القلوب من رحمتهِ وفضلهِ "، وقال **السّدي**: " الحكمة النبوة، والصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور لا تختصُ بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة والرّسالة أخص، لكن لاتباع الأنبياء حظٌ من الخير على سبيل التبع "[9].

وقال **تعالى أيضًا:﴿ وأذكُرْنَ مَا يُتْلَى في بيُوتِكُنَّ من آياتِ اللهِ والحكْمَةِ إنّ اللهَ كانَ لطِيفًا خبيرًا**[10]﴾،قال " **الزّمخشري** ": " ثمّ ذكرهُنّ أنّ بيوتهنّ مهابطُ الوحيّ، وأمرهنّ أن لا ينسين ما

يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين هو: آياتٌ بيّناتٌ تدلُ على صدقِ النبوةِ؛ لأنّهُ معجزة بنظمِهِ وهو حكمة وعلوم وشرائع حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم فأنزلهُ عليكم أو علم ما يصلح لنبوتهِ من يصلح لأن يكرهوا أهل بيتهِ أو حيثُ جعل الكلام الواحد جامعًا بين الغرضين "[11]، وقال أيضًا:﴿ **ولقدْ آتيّنَــا لقمــانَ الحِكْمَــةَ** ﴾[12].

❖ **الحكمة في السنة:**

وردت كلمة **الحكمة** في السنة المطهرة وكانت كل معانيها متوافقة في المعنى وإن اختلفت الأحاديث في ألفاظها، ولذا سأذكر بعض الأحاديث التي ورد فيها ذكر الحكمة:

- عن أبي كعب رضي الله عنه أنّ النبي قال: " إن من الشعر لحكمة "[13].
- عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: " ضمنِي النّبي إلى صدرهِ وقال: " اللّهم علِّمهُ الحكمةَ "[14].
- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قالرسول الله صلى الله عليه وسلم: " الحكمة ضالةُ المؤمن حيثما وجدها فهو أحقُ بها "[15].
- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: " لا حسد إلاّ في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسلِّط على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاهُ الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها "[16].

مما سبق من أحاديث نبوية شريفة، نستنتج أن لفظة الحكمة فيها ما يدل على المعنى العام لهذه الكلمة وهو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ووضع الأمور في مكانها المناسب.

2-**مــعنـــــى الـــزّهـــــــد** :

أ- الـــزهــد لغــةً:

جاء في" **المعجم الصوفي** ": " أنّ أصل حروف كلمة **زهد** الزّاء والهاء والدّال تدلُ على قلّة الشيء "[17].

وورد في " **الصحاح** ":" الزهدُ خلاف الرغبة في الشيء ويقال فلان يتزهد بمعنى يتعبد "[18].

من خلال ما سبق يتضح أنّ " **الزهد** " في معناه اللّغوي يعني قلة الشيء أو الإعراض عن الدنيا وتركها لاحتقارها أو خوفًا من الله أو هو التعبد والطّاعة.

ب – الزّهـــــد اصطـــلاحًـــا:

" هو الكف عن المعصية وما زاد عن الحاجة، وترك ما يشغل عن الله وبُغض الدنيا والإعراض عنها، أو هو ترك راحة الدنيا طلبًا لراحة الآخرة "[19].

وقد عرّفه **ابن الأنباري:**" هو الانصراف عن الشّيء احتقارًا له وتصغيرًا لشأنه للاستغناء عنه بخيرٍ منه"[20].

وعرّفه **أبوسعيد بن الأعرابي**: " وهذا على قيل في الزهدِ لأن يكون همُهُ همًا واحدًا لله عزّ وجل وحده ليس ذكر دنيا ولا آخرة وهو غاية الزّهد"[21].

لقد أجمعت هذه التعاريف على أن **الزهد** هو الإعراض عن الدنيا وتركها وعدم الرّكون إليها طمعًا في الآخرة ورغبةً في ثواب الله وثِقةً بما عندهُ.

ثـانيًـــا: موضوعات الحكمة وتجلياتها في الخطاب الزّهدي "المنقذي"

الحكمة موجودة في الشعر العربي منذ نشأتهِ وعلى مرِ عصوره الأدبية إلى عصرنا الحاضر وهذا طبيعي؛ لأنّ الحكماء من الشعراء وُجِدُوا في كلِ زمانٍ ومكانٍ، إلى جانب أنّ النّاس يحتاجون دائمًا إلى من يرشدهم و يوُجههم عبر الزّمن، لذلك كان الشعر أحد الوسائل المهمة لدى العرب في إيصال المعلومة أو الفكرة، وذلك ينمُ على مدى حبِّ العرب وتعلقهم بالشعر.

وبما أنّ الحياة تقوم على الخير والشر، وبما أنّ الإنسان يصطدم دائمًا بالموت وبما أنّه يعيش وسط غيره ويتأثر بهم، فلا بد له من الإحساس بالفرح وباليأس وبالخوف وبالجبن وبالشجاعة والحب وغيرها من الانفعالات النفسية التي تتناوب عليه، فهنا يأتي دور الحكمة لتكون عامل ردعٍ وأمرٍ ونهيٍ اتجاه ما هو سلبي، وتحضُّهُ على فعل الخير والتسامح وتعزز إيمانه بالقضاء والقدر.

أ–الثّقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل:

أصاب أسامة بن منقذ نصيبًا وافرًا من الثّقافة الدينية التي تتجلى أكثر ما تتجلى في الدعوة إلى التَفاؤل والثقة بأنّ فرج الله ولطفه قريبٌ؛ لأنّهُ سبحانه وتعالى يسمع النّجوى، ويُنجّي الغريق من غرقهِ، فما عليه إلاّ ترك اليأس والقُنُوطِ والتشاؤم والتّوجه إلى الله تعالى والثّقة به والتوكل عليه[22]:

يَا آلِفَ الهَـمِّ لا تَقْنَـط فَـأيّــأَسُ مَـا تَكُـونُ يأتيّكَ لُطْفُ اللهِ بالفَـرَجِ
ثِقْ بالذِي يَسْمَعُ النّجوى ويُنْجّي من الـ بَلْوى ويسْتَنْقِذُ الغَرَقَى من اللُّجَـجِ

والشّاعر أسامة مِمن يُؤمِنون بالقضاءِ والقدر, لذلك لا نستغرب أن نجده يصوغ الحكمة في هذه الأبيات الرائعة، حيث يرى أنّ الرّزق ممدودٌ لامحدودٌ بل مَقْسُومٌ لا حِيلة في تقسيمهِ، فما على الإنسان إلاّ أنْ يُفوِض أمرهُ لله تعالى فهو خير الرّازقين ، وهو الحاكم العادل المقسط الذي لا يرد أمرهُ وقضاءهُ، هكذا يقول أسامة [23] :

فوّض الأمر راضيـًا جفّ بالكَـائِـنِ القَلَـــمْ
ليّس في الرِّزقِ حِيلة إنّمـا الـرّزقُ بِالقسَـــمْ
أنّ للخلـقِ خَـالِقًـا لا مَــردّ لِمَــا حَـكَـمْ

ب– ولا تغُـرنّكُم الحيـاة الدنيـا:

وبما أنّ **العمر** مهمـا طَـال يظلُ قصيـرٌ،يتوجه أسامة بباقة من النصائح مذيلة ببعض الحكم، منها التحذير من الاغترار بالدنيا والعمر القصير، موظفًا أسلوب النّهي والتحذير وذلك في قوله (**احذر، ولا تغتر**) ، مُشيرًا إلى من أصابه الغرور من قبل وكانت نهايته الموت المحُتّم، وبقي عبرة لمن يعتبر، يقول أسامة[24]:

احْذَرْ مِنْ الدّنْيَا ولاَ تَغْتَرّ بالعُمْـرِ القَصِيـرِ
وانْظُرْ إلى آثارِ منْ صَـرَعَتْـهُ مِنّا بالغُـــرُورِ

ثمّ يُعطِي أسامة مثالاً آخرًا مجسدًا جماليات الحكمة مؤكدًا أنّ حقيقة الدنيا مرٌ وأليمٌ، فالموت يترصده في كل حينٍ، بل الإنسان فانٍ، فمهما كسب من ثرواتٍ وأموالٍ طائلة وشاد وبنى مساكن فخمة سيموت ويرحل من هذا الوجود، ويسكن حفرة القبر كغيره من البشر، هذه حقيقة الدنيا فالموتُ لا يختار ولا يميّز بين البشر، بل هو حقُ الجميع، يقول[25] :

عَمَّـروا وشَـادُوا مَـا تَـرا هُ : مِنْ المنَـازِلِ والقُصُـورِ
وتحوّلُـوا مِـنْ بعْـدِ سُكْـــ نَاهَـا إلى سَكَـنِ القُبُـورِ

وما أروع هذه الحكمة التي بثها الشاعر حينما نهى عن التعلق بالدنيا وملذاتِها، مختصرًا الحياة بمثالٍ بسيط فيه حكمة جميلة لأصحاب العقول النيرة، فتوجه حاثًا كل من تذمر على ما تمناهُ منها وفات دون أن يتحقق بالصبر وعدم النّدم؛ لأنّ الدنيا بكلِ ما فيها من خيرٍ أو شرٍ كظِلٍ زائلٍ والعيّش فيها كحلم النّائم، يقول أسامة[26]:

لا تَأسَفَــنَّ لـذاهِـبٍ أو فَـائِتٍ يُرْجـى ولاَ تَتبَعْـهُ زفْـرةُ نَـادِمِ

فَغُضَـارة الـدُّنْيَـا كَـظِـلٍّ زائِـلٍ والعَيْشُ فِيهَا مِثلحُلـم النّائِـمِ

ت– الناس سواسية أمام البلاء:

وبما أنّ المرض والضُّر حين يتسلط على ابن آدم لا يفرق بين البرايا، يبدع أسامة في الحديث عنه بألوان البيان، حيثُ شبهه باللّيل وحلُوله على كلِ الأنام دون التمييز بينهم، هكذا قال أسامة[27]:

الضُّــرُ في أيّـامِنَــا هـذِهِ كَـاللّيـلِ يغْشـى سَـائِـرَ النّاسِ

ث– فصبرٌ جميلٌ:

إن تجربة الشاعر العريضة في الحياة تجلت من خلال توظيفهُ للحكمة التي ميّزت قصائده وأكسبتها طابعًا خاصًا قد لا يتجلى في قصائد غيره، فمثلاً نجده يدعو إلى **الصبر** على المكاره **وعدم الجزع** عند الأهوال فالصبر مفتاح الفرج، ويُعلل ذلك بحكمة قيمة مذيلة بمثال واقعي وهو صبرُ الجنين في بطن أمّه أفضى به إلى رؤية النُّور، فكل مشقة يعقبها فرجٌ جميل، يقول الشاعر مصورًا ذلك في هذين البيتين[28] :

اصْبِر على ما كَرِهْتَ تحْظَ بما تهْوى فمَـــا جـَازعٌ بِمعْذُورِ

إنْ اصْطِبارَ الجنِينِ في ظُلَمِ الـ أحْشَـــاءِ أفْضَـــى بِـهِ إلى النُّـورِ

ويقول حاثًا على الصّبر أيضًا مُمثلاً بمثالٍ آخر بسيطٍ على جزاء الصّابر، فيه من الحكمة ما فيه، وهو اصطبار ابنة العنقودِ والتي يقصد بها (العنب)، فهي حين تُوضع في براميل ضيقة ومُظلمة تصبر على الضيق والظلام، ذلك الصبر أفضى بها ذلك لتكون شرابًا سائغًا لذّةً للشّاربين وذا شهرة ويباع بأموال طائلة، بهذا المثال يمكن للإنسان أن يتعلم التّحلي بالصّبر والتريث فالفرج أكيد سيطرق بابه،ومن تأدب في البلاء وفّقهُ الله للخروج منه بارتقاء [29]:

اِصْبِرْ إذا نَابَ خَطْبٌ وانْتظِرْ فرجًا يَأتِي بِه الله بعْدَ الرّيْثِ واليـأسِ

إنّ اصطِبارَ ابْنَةَ العُنْقُودِ إذْ حُبِسَ في ظُلْمَةِ القارِ أدّاها إلى الطَّاسِ

وفي حثِّه على الصبر والقناعة مرة أخرى، يلجأ الشاعر أسامة للتذكير بالموت لكي يعتبر ويتعظ أصحاب القلوب الجزوعة، وذلك من خلال هذه اللّوحة الزهدية التي تحمل في طياتها حكمة مفادها أن الأنام مآلهم الرّحيل ونُزُلُهُم القُبور فلا داعي للجزع لحوادثِ الدهر وملِماتهِ [30]:

لا تغْتبِـطْ بِسُـــرُورِ دُنـــيَـــا مَـا يَـدُومُ بهَـا سُـرورُ

وَكَــذَاكَ لاَ تَجْــزَع لِحَــــا دِثَةٍ تضِــيقُ بهَــــا الصُّـــدورُ
وَجميــعُ مَــا فيــهِ الأنَــــا مُ أَلَيْــسَ آخِـــرَهُ القُبُـــورُ

وعن الصبر يقول أسامة يصفه وصفًا دقيقًا وجميلا بحكمةٍ موجزةٍ ذات قيمة، فالابتلاء في نظرهِ مهما كبر وعظم يبقى ضعيفًا أمام قوة الصبر، فالإنسان الصّبور لا تضعفهُ الرّزايا مهما كان وقعها على نفسيتهِ، وهذا إنّما يدلُ على شخصية أسامة القوية المؤمنة بالقضاء والقدر المسطر من عند الله[31]:

وَكُلُ ما استُعْظِمَ من حَادِثٍ مسْـــتصغِرٌ في جَانِــبِ الصّبْـرِ

ج- كُـلُ من عليها فــانٍ:

برع أسامة في زهدياته في التذكير بالموت بأسلوبٍ حكيمٍ، فكان يلجأ لأسلوب **النّداء** مخاطبًا كافة البشر كي لا ينسوا هذه الحقيقة التي لا هروب منها إلاّ إليها، فيطلبُ من أيّ إنسانٍ عاقلٍ التّروي والتمهل في حياته وخطواته؛ لأنّ من جاوز سِنّ السّبعين كم عساه سيعيش؟ أم هل أمّنهُ الله النّجاة والسّلام من **النّار**؟!، لذلك ينصحهُ بعدم الاغترار بلذةِ العيّش فالعمر مهما طال يبقى قصيرٌ يقولُ[32]:

أيُّهَــا المغْـرُورُ مَهْــلاً بلَــغَ العُمُـــرُ مــداهُ
كَمْ عسى مَنْ جَاوز السّبـ ـعِيـــنَ يَبْقَــى كَـمْ عَسَاهُ
أَنَسِيتَ الله أمْ أمّـــ نّـكَ الـلّــهُ لظَـــــاهُ

ويصوغ أسامة حكمته في هذه المقطوعة الجميلة، مضيفًا إليها ألونًا تشبيهية خلابة أضفت عليها لمسة السحر البياني، حينّما شبّه النّاس بالطيور والدنيا شباكهم، والموت قناصهم يأتيهم على مهلٍ متفننًا في أخذ أرواحهم، ففيهم من يموت بحادث، ومنهم من يموت بمرض،...إلخ، ورغم ذلك لا يُولوْنها أيّ اهتمامٍ؛ لأنّهم مشغولون بزخرف الحياة ومتاعها الزّائف[33]:

النّاسُ كَالطّيرِ والـدُّنيا شباكُهُــمُ وَهُمْ بها بَينَ رَكّاضٍ ومُختَبِـــطِ
والموتُ قَنّاصُهُمُ يأتي على مَهَلٍ لِهَلْكِهِمْ بَيْــنَ مَـذْبُـوحٍ ومُعْتَبِــطِ
وقَـدْ شُغِلْنَا بدُنْيــانا وزُخْـرُفِهَـا فالخلقُ ما بيــن محزونٍ ومُغْتبِــطِ

ويعُود الشّاعر مرة أخرى للتّذكير مع الجزم المطلق بأنّه ليّس بعد الموتِ سوى الجنة أو النار والموعد الذي سيحدد ذلك هو يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجزي فيه الله عن الأعمال وستكون

الحسرة والنّدامة لمن جزاه الله بالغبنِ والسخط، وهنا تتجلى جماليات حكمته حين توجه يعظ بأسلوب الحكماء كل من يلهى عن هذه الحقيقة مكتفيًا بتذكيرهِ بيوم الحشر [34]:

فَليّس بعْدَ الموتِ دارٌ سِـوَى جنّـةِ عَـدْنٍ أو لظًـى تَضَـرمُ
والموعِدُ الحشرُ ويُجزَى عن الـ أعْمَـالِ والغَبْـنُ لِمـنْ يَنْـدَمُ

ويقول أيضًا عن نهاية حال الإنسان مشبهًا رحيله من الدار الدنيا إلى حياة البعث بالطيور العائدة إلى أوكارها، فمهما امتلك الإنسان في حياته سيغادر في النهاية إلى وكرهِ الحقيقي[35]:

والتُربُ أوكَـارُ الأنَـامِ، وكُلُنَـا كَالطيّـرِ، رائِحةً إلى أوكَـارهَـا

ح- فقد الأحبة غربة:

وبما أنّ أسامة تغرّب عن وطنه الأم " شيزر "، فهو أحق بأن يصفها، فشبه مرارتها وتعاستها بتعاسة القبر ووحدته وظلامه مع أنّه أرفقُ مسكونٍ يسكنه البشر إلا أنّه غير محبب الذهاب إليه ، يقول[36]:

مضَتْ لِدَاتِي وإِخْوانِي، وأفْرَدَنِي دهْـرِي، فعِـشْتُ وحِيـدًا ميّتًـا كمدَا
والقبْرُ أرْفَقُ مسْكُونٍ ونكْـرهُـهُ إذَا كَـان يسْكُنُـهُ الإنسـان مُنْفـرِدَا

خ- لاتأمنّ غدر الزمان:

أحوال الدنيا لا تدوم وتقلباتها ليست بثابتة لأحدولا مستقرّة لآخر،خاصة حين تصفُو لأحدٍ وتغدر بآخر، وعنها كتب الشّعراء آرائهُم ووصفُوا شعورهم وأحاسيسهم، ومن بينهم الشاعر **أسامة بن منقذ**الذي كثر تذمره وطالت شكواه من كثرة الخيبات وتوالي الصدمات، حتى صار يرى في تعاقب الأيام خيرا له فكل يومٍ يمرُ أحسن من اليوم الذي يليه في قوله[37]:

أصبحتُ في زمنٍ يشيبُ لجُورهِ فُـودُ الجنيـن، ويهرمُ المولُـودُ
وإذا شكونَـا اليّـومَ، ثُمّ أتى غدٌ قُلْنَـا: ألا ليّـتَ أمْـسٍ يعُـودُ
أنظُر إلى لعِبِ الزّمَـانِ بأهلِهِ فَكَـأنّهُـم وكَـأنّـهُ أحْـلامُ

يبدو أن الشاعر أسامة لم يتقبل فكرة المشيب والعجز؛ هذا ما أثبتته أبياته التي يستغرب فيها من التغير الذي طرأ عليه، ففي القبل كان فارسًا شجاعًا، وكانت كفُّه مألفًا للسّيوف الصّوارم لصد الأعادي، فها هو الآن يتفاجأ بشبح الشّيخوخة الذي نزل عليه كالصّاعقة، وعرقل مسيرة

حياته وخطواته، وغيرها تمامًا، فصار يرى أنّ الهرم والعجز أكبر موت للإنسان الذي اعتاد على النشاط، يقول[38]:

قدْ كَانِ مألفِي مَأْلفًــا لمهنــدٍ تُعْرى القلُــوبُ لهُ وتفْرَى الهَــامُ
فَرجعتُ أحملُ بعد سبعين العصَا فَاعْجب لمَا تَــأتِي بهِ الأيّـــامُ
وإذا الحِمامُ أبى مُعاجلَـةَ الفتَــى فحيــاتــهُ، لا تكْــذَبنّ حِمَــامُ

د- الدهر كالميزان يعلو وينخفض:

لما يتحدث الشاعر عن المحن والرّزايا ولعبها بالبرايا، وتقلبات الدهر وصروفه، يصفلنا الشاعر عدم انصياعه وراء الدنيا ومتعة الحياة بأسلوب الحكماء، مختصرا ذلك بعبارة موجزة فحواها أن الدنيا لا تستحق العناء والخوف؛ فلو كان لها معنى ما سقى الله منها الكافر شربة ماء، يقول[39]:

لمّا رأيْتُ صرُوفَ هــــذَا الـدّهْـرِ تلْعبُ بالبَـرايَا
يعْلُو بها هــذا، ويهْـبِطُ ذَا، وقصْـرهُــمُ المنَــايَــا
لاَ نِعْمـــة فيــه تــدُومُ، ولاَ تَــدُومُ بِــهِ البَــلايَــا
لــمْ أغْتبِـطْ فيــهِ بفَــائِـدةٍ، ولــمْ أخْــشَ الـرّزايَــا

أمّا عن تأرجحات الدهر وتقلباته بالبشر يقول أسامة[40]:

والدّهرُ كَالمِيزانِ: ذُو الفضلِ ينْــ حطُّ وذُو النُّقصـــانِ يسْتعْلِـــي

وحينيبخلِ الدهر ويشُح بالسُّرور على الانسان يقول أسامة مُستهتِرًا به[41]:

والدهْـرُ يمْنحُ، ثُمّ يمْنعُ نزّر مَا أعْطَى، ويبْخَــلُ بالسُّرُورِ الدائِـــمِ

ذ- الأرزاقبيداللهتعالى:

ويرى الشّاعر أسامة أن الرّزق ليس بقوة البدن، بل هو بمشيئة الله فهو مقسِّمُ الأرزاق ومرسلها إلى أصحابها، يقول[42]:

لو كَـان رزقُ الفتَـى بقُـوتهِ نــازلتُ ضَــاري الأسُــود فِـي الأجــمِ
لكنّــهُ عــن مشيئةٍ سبقــتْ فِي الخلْـقِ تجري فيهِـم علَى القسـمِ

ر- انعدام الإنسانية يُولِدُ البخل:

أمّا عن البخل يقول مُستغربًا شيوع هذه الصّفة الذّميمة في الأنام[43]:

قُـلْ للـرّجـــاءِ: إليّـــكَ، قــدْ أتعَبتْنِـــي بَعـــــدَ الكِـــرَامِ

قَــدْ عَــمّ دَاءُ البُخـلِ، حَــ ــتَى شَــاعَ فِــي كُــلِ الأنَــامِ

ويقول أيضًا عن البخل[44]:

والرّزقُ لو كَانَ في أيّدِي الأنَامِ أبَوا أنْ يشـربَ المَـاءَ من طُوفـانِهِ نُـوحُ

ز- واجعل الموت راحةً لي منمن كُلِ شرٍ:

ويرى أسامة أن الرّاحة في الموت إن كان طول العمر يجلبُ للإنسان التعذيبُ والضّرر، يقول[45]:

إذا تقوّسَ ظهْـرُ المرءِ من كِبـرٍ فعــادَ كالقوسِ يمْشِي، والعصَا الوتـرُ

فالموتُ أروحُ آتٍ يسْتريحُ بهِ والعيّـشُ فيــهِ لــهُ التعذيبُ والضّـررُ

ولمّــا غفل الموت عن الشّاعر، وكثر بلاؤُهُ وشقاؤُهُ، صار يتذمر ويشتكي من طول العمر والتغيرات التي طرأت على جسمه، ويظهرُ ذلك جليًا في قولهِ[46]:

نُكِسّتُ فِي الخلقِ، وحطّتنِي السّـ ـبعُــونَ لمّــا أنْ عَـلــتْ سِنِّـــي

وغيّرتْ خطِـي، فأضْحَــى كمَــا ترى، وكَــمْ قَــدْ غيّــرتْ مِنِّــي

والمَوتُ فِيهِ راحةٌ مـن أذَى الـدُّ نيَــا، فمَــا أغْفلــــهُ عنِّـــــي

س- دوام الحال من المُحال:

وقال وقد رأى نمْلاً يتجاذبُ زهرةً، كلّما أخذتها نملةً انتزعتها منها أخرى مثل ملوك العالم تجاذبوا هذه الدنيا وتنافسُوا فيها لكنهم لم يُخلدوا فيها ولم يملِكُوها؛ لأنّه وببساطة دوامُ الحال من المِحال[47]:

شَاهَدتُ نمْلاً قدْ تجَاذب زهْرةً ذَا قَــدْ تملّكهــا، وهــذا يسـلِــبُ

مِثْلَ المُلُوكِ تجَاذبُوا الدُنْيا فمَا حصَلتْ لمغْلُوبٍ ولاَ مــنْ يغْلِـــبُ

خـــاتـمـــة:

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج مفادها:

- أولى الشّاعر " أسامة بن منقذ " أهمية بالغة لشعر الحكمة في زهدياته، هذه الأهمية التي تُوحِي بسيرته الحسنة وتمسُكهِ بالدّين الإسلامي الحنيف، هذا الدين الذي تجلّى في هذه الدراسة التي قمنا بها ، والتي توشحت بمعاني الإيمان والتّقوى والدعوة إلى ترك الدنيا، والتذكير بالموت.

- كشفت هذه الدراسة على أن شعر الحكمة ليس خارجا عن ديوان الشعر، بل هو جزء منه يُثبت وجوده بصدقِ مبعثه وحرارة عاطفتهِ.
- الحكمة في الغالب تكون منبثقة من تجربة إنسانية مرّ بها الشاعر.
- طابع الحكمة الذي لمسناه في شعر " أسامة بن منقذ " يشير إلى أنّ الشّاعر ابن بيئة متشبعة روحيًا ودينيا، فأثر ذلك في لغته الشّعرية.
- الحكمة في شعر " أسامة بن منقذ " لا تخرج عن الاتجاهات الثلاثة:الاتجاه الإنساني، والاجتماعي، والديني.
- الحكمة في شعر"أسامة بن منقذ " قد توشحت بالكثير من أساليب النّداء وصيغ الأمر والنهي والتحذير وما إلى ذلك مما يُقوّي التأثير وينهض بمهمة الترغيب والترهيب وصولاً إلى ما يهدي إليه من التقويم والتهذيب والإصلاح.

هوامش:

[1] إبراهيم مصطفى وآخرون: معجم الوسيط، ج1، دار المعارف، مصر، ط2، 1980م، ص190.

[2] سورة لقمان: الآية،12.

[3] إبراهيم مصطفى وآخرون: معجم الوسيط، ص190.

[4] الرّازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1981م، ص148.

[5] ابن منظور: لسان العرب، مادة: حكم، ص412.

[6] محمد عبد المنعم خفاجي: الشعر الجاهلي،دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط 2 ،1973م، ص141.

[7] علي عبد السّتار السّطوحي:الحكمة في الشعر العربي، دار الاعتصام، القاهرة، مصر،(د، ط)،1414هـ، ص09.

[8] سورة البقرة: الآية، 268 ، 269.

[9] ابن كثير: تفسير القرآن الكريم العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، ج1، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط1420،2هـ،1999م، ص634.

[10] سورة الأحزاب : الآية،33،34.

[11] الكشّاف: الزّمخشري، ج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1978م،ص546.

[12] سورة لقمان: الآية،12.

[13] أبو عبد الله البخاري: صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ، 2001م، ص1081.

[14] المصدر نفسه، ص631.

[15] ابن ماجة: سنن ابن ماجة، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ج2، دار إحياء الكتب العربية، مصر،(د، ط)، 1988م، ص738.

[16] أبو عبد الله البخاري: صحيح البخاري، ص17.

[17] سعاد الحكيم: المعجم الصّوفي(الحكمة في حدود الكلمة)، دار دندرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ص552.

[18] محمد الجوهري: الصحاح، تح :أحمد عبد الغفور عطّار، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4 ،1990م، ص481.

[19] محمد شيخاني: التربية الرّوحية بين السّلفيين والرّوحيين, دار قتيبة، دمشق، سوريا, ط2, 1995م, ص155.

[20] عبد الله محمد البغدادي: الزهـد, دار ابنكبير للطباعة والنشر والتوزيع, ط1, 1999م, ص05.

[21] أحمد البيهقي: الزهد الكبير, تح: عامر أحمد حيدر, مركز الخدمات والأبحاث الثقافية, بيروت، لبنان, ط1, 1987م, ص24.

[22] أسامة بن منقذ: ديوان الفارس أسامة بن منقذ، تح: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ص296.

[23] المصدر نفسه, ص304.

[24] المصدر نفسه, ص 331.

[25] المصدر نفسه، ص331.

[26] المصدر نفسه، ص310.

[27] المصدر نفسه، ص302.

[28] المصدر نفسه، ص301.

[29] المصدر نفسه, ص302.

[30] المصدر نفسه، ص331.

[31] المصدر نفسه، ص300.

[32] المصدر نفسه، ص342.

[33] المصدر نفسه،ص333،334.

[34] المصدر نفسه، ص339.

[35] المصدر نفسه، ص332.

[36]المصدر نفسه، ص299.

[37]المصدر نفسه، ص298.

[38] المصدر نفسه، ص322،323.

[39]المصدر نفسه، ص293،294.

[40]المصدر نفسه، ص308.

[41]المصدر نفسه، ص310.

[42]المصدر نفسه، ص309.

[43]المصدر نفسه، ص310.

[44]المصدر نفسه، ص327.

[45]المصدر نفسه، ص319.

[46]المصدر نفسه، ص324.

[47]المصدر نفسه، ص296.